(١٣)
هل نستطيع أن نفهم المصرى ؟*

سؤال نظن جميعا أننا نعرف الجواب عليه ولكنك سترى هنا أن ذلك غير حقيقى لأن المصرى الحقيقى هو الفلاح ، ونحن لا نستطيع أن نفهم الفلاح ، وسنرى ذلك فيما يلى.

الموضوع الرئيسى الذى أناقشه فى كل مقالاتى هو الأخلاق ، أى الأخلاق التى تعتبر الأساس لشخصية الإنسان والميزان الذى نزن به أعماله، وأى كاتب محترم لابد أن تكون الأخلاق أساس وزن تصرفه وعمله ، وأنا أسلك طرقا كثيرة ومختلفة لكى أصل إلى تعريف الرجل الممتاز والطريق إلى تكوينه ، وأنا ألجأ فى مقالاتى إلى موضوعات نعرفها جميعا لكى أصل بالقارئ إلى أساس قوة الأخلاق والطريق إلى تكوينها ، لكى يعرف القارئ أن الأخلاق الكريمة هى أساس وزنه وتقديره عند الناس ، فقد يكون الإنسان طبيبا أو مهندسا ممتازا ، وقد يكسب من عمله الألوف ولكن الموضوع الأساسى فى تكوينه ووزنه عند الناس هو أخلاقه.

ولا يولد الإنسان بأخلاقه الحسنة كاملة ولكنه يبنى أخلاقه مع سنوات العمر ، ولا أحد يهتم بتكوين أخلاقك ، لأن الإنسان يبنى أخلاقه بنفسه، ولكى يعرف كيف يبنى أخلاقه بنفسه ينبغى أن يعرف ما هى الأخلاق. وكلما كان مركز الإنسان عاليا كانت حاجته إلى الأخلاق أكبر وكانت الأخلاق المطلوبة منه أعظم ، ومن هنا فإن مستوى الأخلاق المطلوبة منه أرفع والجهد المطلوب منه للوصول إلى ذلك المستوى الرفيع أعظم ، ولاأحد يولد بأخلاقه كاملة وإنما لابد أن يعمل كل منا لبناء أخلاقه ، فلا أحد فى الدنيا يولد بأخلاق كاملة ، ولابد لكل منا أن يبنى أخلاقه بنفسه وكلما كان مركزه عظيما كانت الأخلاق المطلوبة منه أعظم.

وأنت إذا سمعت عن طبيب يأخذ من الناس عشرين أوثلاثين جنيها فى الكشف فأنت تذهب إليه وتدفع الكشف الذى يطلب وأنت بهذا تدفع

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٥ يولية ١٩٩٣م.

ثمن الأخلاق التى ستنعم بها منه، وأنت تعرف أنك بهذا ستستمتع بأخلاق عالية بناها هذا الرجل بنفسه فلا أحد فى الدنيا يولد بأخلاقه كاملة ، وإنما الإنسان يبنى أخلاقه بنفسه ، فنحن نبنى أخلاقنا بأنفسنا، ولكى نبنيها لابد أن نعرف ما هى. وبعضنا يأخذ أخلاقه عن أبيه أو عمه أو خاله ، ولكنه فى كل حالة من هذه لابد أن يعرف ما هى الأخلاق ، لأن الأخلاق هى أساس قيمة الإنسان ، ولابد أن يتعلمها الإنسان بنفسه ، وبعضنا حسن الحظ يأخذ أخلاقه عن أبيه أو عمن يربيه ، ولكنه فى كل حالة لابد أن يعرف ماذا يأخذ ، أو ماذا يطلب.

وأنت – ربما دون أن تدرى – لابد أن تعرف أن الأخلاق هى التى تعطى الإنسان قدره ، وكان الماضون من شيوخنا يعرفون أنهم يقيسون الناس بأخلاقهم ، ولهذا فقد اهتموا بأن يعلموا الناس كيف يكونون أخلاقهم ، والغزالى فى كتابه الخالد إحياء علوم الدين يكتب كتابا قائما بذاته فى تعريف الناس بالأخلاق لأنه كان يرى أن الأخلاق هى أساس الدين وأساس كل شىء له قيمة فى حياة الإنسان. ويراد بها القيمة المعنوية للإنسان ، وقد سلكت طرقا شتى فى الكلام حتى أصل بقارئى إلى إدراك معنى الأخلاق: تكلمت عن أزمة اللحوم وعن دمياط وصناعاتها وصناعة الجبن فيها وأشياء فرعية كثيرة، وكل غرضى هو أن يعرف القارئ ما هى الأخلاق، وأظن أن القارئ يعرف الآن أن طبيبا يتقاضى من مرضاه حوالى ثلاثين جنيها فى الكشف لا يمكن أن يكون على أخلاق، وقد يكون هذا الرجل عبقريا فى الطب ولكنه يكون بعيدا عن الأخلاق عندما يتقاضى من المريض ثلاثين جنيها فى الكشف لأنه ينسى هنا أن معظم الناس فى بلدنا فقراء ، وأن واجبنا جميعا أن نخدم أولئك الفقراء، ولايجوز له أن يتعلل بأنه يطلب هذا المبلغ فى الكشف ليحمى وقته أو لكى يبعد الناس عنه ، لأننا ما دمنا نعيش فى بلد فقير فإن واجبنا الأول هو خدمة الفقراء.

ومهما كان ما يقوله فنحن نقول له: دعك من هذا كله، لأنه مهما كان منطقك ، فإنه لا يجوز أن تطلب من الناس هذا المبلغ، لأنك إذا كنت تستطيع أن تكشف على المريض إذا دفع لك هذا المبلغ، فأنت تستطيع أن

تكشف عليه إذا دفع لك ثلاثة جنيهات أو أربعة أو خمسة، أما أن تأخذ من المواطنين ثلاثين جنيها فى الكشف فذلك يدل على أن أخلاقك ضعيفة وذلك يقلل من قيمتك كطبيب، وأنا شخصيا لا أطمئن إلى كشفك. لأن المسألة ليست مسألة وقت لأنك مادمت تستطيع أن تكشف بثلاثين جنيها أو فوقها بقليل فمعنى ذلك إنك تستطيع أن تكشف بخمسة ويكون طلبك للثلاثين جنيها استغلالا لحاجة الناس إليك، وأذكر أنه كان لدينا فى مدينة دمياط ممرضة ممتازة، وكانت تأخذ أيامها خمسة جنيهات فى اليوم وكانت سيدة محترمة جدا، فجاءتها ذات مرة سيدة وقالت لها إن ابنها مريض وإنه فى حاجة إلى ممرضة ممتازة، وإنها مستعدة أن تدفع عشرة جنيهات فى اليوم ، فقالت لها المرضة: المسألة ليست مسألة فلوس وإنما أنت ترين أننى آخذ خمسة جنيهات فى اليوم، ووقتى كله مشغول وليتنى أستطيع مساعدتك حتى لو عرضت على عشرين جنيها، ولكنى أقول لك إن البلد ملىء بالممرضات وفيهن سيدات ممتازات، وأنا أستطيع أن أعطيك أسماء الكثيرات منهن ، وصدقينى إن فيهن ممرضات ماهرات حقا وأؤكد لك أنهن يستطعن العناية بابنك كما ينبغى، خذى هذه ورقة فيها أسماء ثلاث ممرضات ماهرات جدا، أما أنا فقد قلت لك إننى لا أستطيع العناية بابنك مهما دفعت، وأخذت السيدة الورقة وذهبت. وسمع بالحكاية طبيب صاحب مستشفى، فذهب إليها وعرض عليها أن تعمل معه وقدر لها راتبا محترما، فقالت:

أنت طبيب محترم وتعرف أن التمريض مسئولية إنسانية، وأنا مسئولة عن عدد من المرضى ولا أستطيع تركهم، فزاد الطبيب فى المرتب فقالت: ولمن أترك مرضاى؟ آسفة جدا يا دكتور! وتزاحم الناس عليها فقالت: اسمعوا.. إن التمريض مسئولية إنسانية وذلك هو عيبه، وأنا عندى مرضاى وأنا مسئولة عنهم ولن أزيد أجرى، فدعونى فى عملى وتوكلوا على الله!.

وقد ظلت هذه السيدة تعمل بنفس الأجر حتى بلغ سنها سبعين سنة وأصبحت عاجزة عن التمريض كما ينبغى، فاعتزلت العمل تماما ولم تحتفظ إلا بما يمكنها من الحياة. وقد أحببت هذه السيدة وقلت لها

ذلك وأضفت أننى مستعد لمعاونتك إذا احتجت ، وليس ذلك تفضلا منى ولكنه تقدير لشخصك ، فشكرتنى. وقد عاشت هذه السيدة حتى بلغت سنها خمسا وثمانين سنة ، وقد تزوجت وأنجبت ثلاثة أولاد ، ولكن أحدا منهم لم يساعدها فكانت تقول: وماذا يفعلون؟ دعهم فلكل إنسان مسئولياته ، وأنا لا أريد أن أثقل على أولادى ، كان الله فى عونهم. وفى أثناء السنتين الأخيرتين من عمرها كنت أنا أقوم بكل مسئولياتها ، وكانت تقول لى: إننى آسفة جدا على ما آخذ منك ولكن النهاية قريبة على أى حال.

ولم أكن أعجب بعملها فقط ، وإنما كانت تعجبنى شخصيتها ونظرتها إلى الحياة ، فهذه امرأة على أخلاق طيبة ، وكنت أقول لها: صدقينى يا سيدتى إننى أتعلم منك ، فأنت سيدة على خلق بارك الله فيك.

وبعد أن أنهيت دراساتى فى باريس وعدت إلى مصر دخلت فى هيئة التدريس فى جامعة القاهرة ، وكنت أعطى كل وقتى للعمل واحترام أصحاب الأخلاق من زملائى فى العمل، وفى ذات مرة استدعانى مدير جامعة القاهرة وكان رجلا محترما جدا. وقال لى: سيزورنا فى الأسبوع القادم وفد من جامعة لندن ، وقد قرر مجلس الجامعة تكوين وفد للقيام بالضيافة لهذا الوفد ، وقد رشحتك لرياسة هذا الوفد واخترت معك فى هذا الوفد فلانا وفلانا وفلانا وقدرنا لكم مكافأة طيبة هى ألف جنيه لك وخمسمائة لكل من زملائك فى هذا الوفد ، فأرجو أن تكون فى مكتبى هنا يوم السبت القادم لكى تبدأ العمل ، فقلت له: لا أستطيع يا سيدى إلا بعد ثلاثة أسابيع عندما أستطيع أن أرتب عملى وأدير وقتى لأننى مسئول الآن عن دروس المنهج لثلاثة فصول فى كليتنا وفصلين فى كليات أخرى ، ولا أستطيع التخلى عن هذه المسئوليات الآن ، ولكنى أدبر نفسى لكى أتولى هذه المسئولية بعد ثلاثة أسابيع. فقال لى: لقد بذلت جهدا كبيرا لكى أحصل على منحة كبيرة من الاعتماد الأمريكى ، فتجىء أنت وتطلب ذلك وأنت تعرف إننا لا نستطيع تأجيل موعد وصول ذلك الوفد لماذا

لا تفكر فى الموضوع يومين مثلا؟ فقلت له: إننى أشكرك يا سيدى ولكنى أقول لك إننى لا أستطيع تدبير ما تطلب إلا بعد ثلاثة أسابيع ، حقا إن المبلغ الذى تقدره سيادتك كبير ومحترم وأنا فى حاجة إليه ولكن صدقنى إن الأعمال التى أتولاها الآن لا يمكننى تركها الآن ، فقال لى: أنت حر فأعطنى الورق ، فناولته إياه فقال لى: هل أستطيع أن أطلب إليك خدمة؟ قلت وما هى؟ قال: شىء بسيط ، إننى أريد أن أضيف ابن أخى إلى دروسك فى كلية الآداب ، فنظرت فى الورقة وقلت: الآن فهمت ، أخدم ابن أخيك فى مقابل تساهلى فى عملى.. لا يا سيدى أنا لا أستطيع ذلك.

ونحن نتعامل مع الناس على أساس الأخلاق أى القيمة المعنوية للإنسان، وقد كان أجدادنا يجعلون الأخلاق أساس قياسهم للناس، وعندما احتل الفرنسيون مصر سنة ١٧٩٨م ادخلوا فى مصر وزن الناس على أساس الحرفة ، فهذا طبيب وذلك مهندس أو محاسب أو مدرس، وقد خرج الفرنسيون من مصر سنة ١٨٠١م وعادت مصر إلى الأتراك، وكان الأتراك قد فقدوا وزنهم الأخلاقى أى أن مصر عادت إلى لا شىء، واهتم المصريون بذلك الوزن الحرفى لأنه أساس القيمة المعنوية للإنسان، وتنبهت إنجلترا لقيمة مصر بالنسبة لطريقها إلى الهند فوضعت سياستها على أساس احتلال مصر، وكانت تسيطر على تركيا وتمكنت إنجلترا فى النهاية من احتلال مصر سنة ١٨٨٢م والسنوات من ١٨٠١م إلى ١٨٨٢م من أضيع السنوات فى تاريخ مصر، ولكن المصريين أعجبهم تقدير الناس على أساس الحرفة، والفلاح المصرى تنبه إلى قيمة مواشيه وعرف قيمة المواشى التى يربيها، فلما دخل الإنجليز مصر أعجبتهم الجواميس المصرية فأخذوها إلى إنجلترا وربوها فى بلادهم وابتكروا بقر الشورت هورن وصدروه إلى مصر، ولم ينكروا أبدا أن هذه الأبقار والجواميس مصرية، وكان اللورد كرومر رجلا ممتازا، وكان يعتنى بأمر الفلاح المصرى ولكنه كان يخاف منه ، لأن الفلاح هو الرجل المحترم الوحيد فى مصر إذ ذاك ، وكان من الممكن أن يسبب لكرومر متاعب رهيبة ، وكان الفلاح المصرى يربى جواميسه وأبقاره فاهتم

كرومر بألا يعتمد على الفلاح المصرى ، وكان الأتراك قد تعودوا على إهمال الفلاح المصرى وعدم تقديره ، وكانوا هم المسيطرين على مصر خلال فترة الضياع التى ذكرناها ، وكان محمد على لا يحب الفلاحين وكانت عنايته بهم قليلة ، ولكن ابنه إبراهيم عرف قدر الفلاح المصرى واهتم بأمره وقد نبهه إلى قيمة الفلاح القائد الفرنسى الكولونيل سيف فكون منهم جيشه الذى انتصر على الدولة العثمانية ووصل بجنوده المصريين إلى بروسة فى مقابل الاستانة ، ومن سوء الحظ أن إبراهيم مات سنة ١٨٤٨م وكانت هذه خسارة كبيرة لمصر ، ثم مات محمد على سنة ١٨٤٩م وبقيت مصر فى أيدى الأتراك ، ولم يكونوا شيئا فكان المسيطرون على مصر إلى جانب الأتراك رجالاً من أجناس غير مصرية مثل الشركس والأرمن ، فاعتمد عليهم خلفاء محمد على ، وكان عباس بن طوسون بن محمد على رجلا غبيا فاعتمد على هذه الأجناس وأهمل الفلاح المصرى إهمالا تاما مع إنه كان الإنسان الوحيد الذى له قيمة ، ويكفى أن الجنود المصريين الذين عملوا مع إبراهيم باشا هم الذين فتحوا الشام تحت قيادة إبراهيم بن محمد على ، وكسبوا انتصار عكا فى ٢٧ مايو ١٨٣٢م بعد حصار ستة أشهر تقريبا ، وكان نابليون قد تقهقر أمام ذلك الحصن الذى كان يحميه القائد الإنجليزى سيدنى سميث. وكان انتصار عكا أعظم نصر وصل إليه محمد على ، وقد أعجب الناس بالفلاحين المصريين ، وأدرك الناس جميعا أن المصريين لا الأتراك هم أصحاب هذا النصر ، وقد خاف السلطان محمود العثمانى من المصريين ، وعندما وصل المصريون إلى بروسة فى مقابل الأستانة استعان السلطان محمود بالدول الأوروبية ، وكانت إنجلترا ترى ضرورة الاستيلاء على مصر لتطمئن على طريقها إلى الهند ، وكانت إنجلترا تعرف قدر نصر عكا وزاد اهتمام إنجلترا بالاستيلاء على مصر وكانت إنجلترا تخاف من الجيش المصرى خاصة بعد أن أمر محمد على جيشه بالمسير إلى الشمال فى أراضى الدولة العثمانية، ووصلت القوات المصرية المنتصرة إلى أطنة، فأسرع وعقد صلحا مع المصريين أعطاهم فيه أطنة

وهذا هو صلح كوتاهيه الذى وقع فى ٢٦ مايو سنة ١٨٣٣م ولكن المصريين تقدموا فى أراضى الدولة العثمانية فاضطرت الدولة العثمانية إلى توقيع معاهدة هنكاراسكله سى بين السلطان وقيصر روسيا وأهم ما فى هذه المعاهدة شرط سرى ملخصه إنه فى مقابل المساعدة العسكرية التى تعهد القيصر بتقديمها إلى السلطان قرر القيصر إنه لا يطالب السلطان بمساعدة فعلية ويكتفى منه بإغلاق الدرودنيل عند الحاجة فى وجه السفن الحربية لأى دولة، وبفضل هذا الشرط تتمكن روسيا من الدخول والخروج من البحر الأسود إذا شاءت، وإذا ما أعلنت الحرب تستطيع أن تسيطر على البوغازات فتصبح تركيا تحت رحمة روسيا. ويعتبر قبول السلطان لهذه المعاهدة برهانا على ما وصلت إليه الدولة من الخوف الشديد من محمد على.

وقد تعودنا إلى الآن أن نقول إن المراد بالدولة العثمانية هنا الأتراك ولكن ذلك غير صحيح ، لأن الذى وصل إلى بروسة هم المصريون لا الأتراك ، وقد وصلت جيوشهم إلى بروسة تجاه الآستانة ، وأعلن محمد على أنه لا يستطيع ترك الأراضى التى فتحها فى بلاد الشام دون تأمين. وقد انزعجت إنجلترا من هذا التصريح وأعلنت أنها ترى من المستحيلات أن تدع تركيا تحت رحمة مصر وأنه لابد من القضاء على الباشا وهو محمد على وأعلنت فرنسا أنها علمت بمزيد الدهشة والأسف عزم محمد على إعلان استقلاله وأنها ستضع كل ما تستطيع من قواتها لإيقاف محمد على عند حده ، وأعلن مترنيخ وزير النمسا رفضه لكل مشروعات محمد على وأعلن مترنيخ رئيس وزراء النمسا أنه لا يمكن أن يترك محمد على ليعكر صفو السلام فى أوروبا ومعنى ذلك إنها تقف بكل قواتها فى وجه محمد على. وشعر محمد على بالخوف فسافر إلى السودان سنة ١٨٣٨م ليطمئن على مناجم الذهب التى كان يعتمد عليها ، وكان محمد على يعتمد على المصريين دون أن يحبهم ، فما الذى كان هناك؟ ماذا كان محمد على يكره من جيوشه المصرية التى تكسب له الانتصارات؟

الحقيقة أننا إلى الآن لا نفهم تاريخ مصر خلال القرن الثامن عشر ، فما الذى كان يجعل محمد على والدول الأوروبية تخاف مصر؟ الجواب مصر

والمصريون ، لقد كان محمد على يتكلم باسم مصر ، ولكنه لم يكن مصريا ولم يحاول أن يكون مصريا ، وكانت الدول الأوروبية تعرف تماما أن محمد على لم يكن مصريا ولم تكن تخافه ، ولكنها كانت تعرف قدر مصر ، وكانت تخافها ، لأن هذا البلد جليل خلال التاريخ ، والسؤال الآن: ما الذى كان جليلا فى مصر؟ والجواب: المصريون ، ونسأل: من هم المصريون؟ الجواب: الفلاحون ، أولئك المزارعون الصامتون الذين فرضوا أنفسهم على التاريخ ، فإن الفلاح المصرى رجل جليل ، جليل بالأرض التى يزرعها وترعى فيها ماشيته ، حتى فى أيام الرومان وهم أسوأ المستبدين فرضوا على مصر ضريبة غذائية وهى القمح لشعب روما ، وهذا غريب جدا ، فإن شعب مصر أيام الرومان كان فى حدود عشرة ملايين إنسان ، وماذا تستطيع عشرة ملايين إنسان؟ قليل جدا ولكنهم استطاعوا أن يغذوا الدولة الرومانية ، استطاعوا وهم ساكتون صامتون أن يغذوا روما بالقمح ، ونحن لا ندرى كم إردبا من القمح كانت مصر ترسل إلى روما كل عام؟ ومن أسف أننا لا نعرف القدر ، ولكننا نعرف أن ما كانت مصر ترسله كان يكفى شعب روما.

كان الفلاح المصرى يحتفظ بما يكفيه لطعامه ويرسل إلى روما القدر الذى يكفى لغذاء أهلها ، وهذا أمر لا يصدق ولكن الفلاح المصرى استطاعه ، وهذه عجيبة من عجائب التاريخ ، لأن الفلاح المصرى فعل ذلك دون أن يشكو ، وهو لم يتذلل للرومان ولهذا ظل محترما ، ولم يكن من الممكن طبعا أن يقف المصرى فى وجه الجيوش الرومانية ولكنه استطاع فى القرن التاسع عشر أن يتغلب على دولة لا تقل عن الدولة الرومانية عندما أتيحت له الفرصة ، وأوروبا كلها ارتعبت أمام الفلاح المصرى الذى كان على وشك أن يدخل الآستانة، وهذه حقيقة ينبغى أن نقف أمامها طويلا لنفهمها.